واذا قابلنا صفات حواء مثلاً في جنة عدن ومريم عند صليب المسيح ورفقة على البئر تسقي خادم ابراهيم وجماله وسميراميس على العرش وراعوث في حقل الشعير وايزابل سيئة مركبتها الحربية ولاي في وليمتها وباريتوا تهزأ بالاسود في مراسح المصارعة . وجان دارك في ساحات الوغى وطوميروس تخطو ذهاباً وايابا في الميدان وراس كورش بين يديها ومرتا تهتم بالواجبات الكثيرة في حضرة يسوع وبوكاهونتوس قاطنة في الاحراش والقديسة تريزا في الدير ومدام رولان على آلة الاعدام ومدام دي ستال شاهرة قلمها بدل السيف ومسز فراي مكرسة حياتها لاجل المسجونين والمهانين . اذا قابلنا صفات كل تلك الشهيرات تألف لنا مراتب ودرجات في اخلاق وطبائع النساء ما لا نجده في اخلاق وطبائع الرجال

من اصعب الامور ان نجد عدداً من النساء اللواتي اشتهرن في عظم الصداقة والوداد الخلص وذلك اولاً لعدم معرفتنا كثيراً عنهن لانفرادهن واعتزالهن في البيوت وثانياً لانهنَّ لا يتجرأن ان يبدين ما يدل على عظم ودادهن وصداقتهن للرجال وامام الرجال وثالثاً لان التاريخ لم يحفظ لنا شيئاً كافياً عن سيرهنَّ وحياتهن ومما يدهش العلماء الباحثين عن هذا الموضوع هو ما يقرأونه و يسمعونه ان للنساء وداد قليل وربما لا وداد لهنَّ وانهنَّ لا يعرفن غير ان يعشقن او يكرهن لا غير « ومتى كان قلب المرأة لا يعرف الا العشق او الكره لا يكون طبعاً فيه محلاً للصداقة والوداد »

جاء في بعض الجرائد الشهيرة لاحد الكتاب ما نصه

« لو كان عقل المرأة قابلاً لأن يفحص ويمتحن بطريق القياس المنطيقي لكنا علمنا وتاكدنا عندئذ ان في تاريخ البشر كله لم تظهر صداقة شهيرة بين النساء »

وقبل ان استطرد الكلام في هذا الموضوع اود ان اورد بعض اقوال توافق

رأي هذا الكاتب المتهوّر

قال سوفت« الحق يقال انني لم اعرف امرأة متهذبة تحب او تحترم بنات جنسها »

لو كان كلام سوفت مأخوذاً عَلَى اطلاقه لدحضناه بشاهد حصل في عصره وفي جواره وهو صداقة مس جونسون والسيدة جيفورد الشهيرتين وربما اراد بهذا الكلام ان المهذبات من الجنس اللطيف يفضلن محادثة ومعاشرة الرجال المهذبين وسمع حكمتهم والتمتع بلطافة كلامهم عَلَى محادثة الجاهلات من بنات جنسهن وهذا امر مقبول ومعقول ايضاً ومن هذا الحكم لا ينتج ان ليس للنساء وداد لبعضهن مطلقاً

جاء في كتاب مس ملوخ المكنى بآراء النساء في النساء — صداقة النساء اعمُّ من صداقة الرجال ولكنها غير ثابتة ووثيقة كصداقتهم » وبعد ذلك تقول — ان علاقاتهن وصداقتهن قلبية ومتزايدة لدرجة الجنون والتوله ولكنها مجردة اي خالية من الغرض والمصلحة الشخصية ومن المؤكد ان عواطف النساء العظيمة وشعورهنَّ الحاد يجعلهنَّ اهلاً للصداقة ولتقديم صالحهن في سبيل اهوائهن وليس كالرجال الذين يؤثرون صالحهم عَلَى اهوائهم

ايوجينا كارين من اعظم الناس شفقة عَلَى الناس نشرت مقالة شهيرة في جريدتها من بضع سنين قالت فيها — طلبت كل حياتي صداقة لا يقطعها سوى الموت ، صداقة سببت لي سعادة وتعاسة فوجدتها في اخي المتوفي واني متأكدة انني لا احصل عَلَى صداقة تماثلها في امرأة ما حتى ولا فضلى النساء الشهيرات في الذكاء والعقل نقدر ان تمثل لي ذلك الفهم والذكاء وتلك الصداقة العظيمة الثابتة التي كانت في اخي » « عواطف النساء وشعائرهن متقلبة زائلة . علاقاتهنَّ بعضهنَّ مع بعض ضعيفة سهلة الانفصال سريعة الانقطاع . فلم لا نقدر ان نحب

بعضنا بعضاً ونتصادق صداقة حقيقية ؟ انني لم أرَ في الماضي ولا في الحاضر مثلاً واحداً بين النساء يدل عَلَى الصداقة القوية فني قلوب الرجال شيء لانجده في قلوبنا بل في قلوبنا تباعد ونفور فقط »

لنبحث الان بالتدقيق عن الاسباب التي حملت هؤلاء الكتبة وكثيرين غيرهم عَلَى الاعتقاد والقطع بخلو قلوب النساء عموماً من عواطف الوداد والصداقة.

الحقيقة الاولى التي تتعلق بهذا الموضوع هي ان النساء بالطبع اقلّ محبة لذواتهن من الرجال واكثر شفقة منهم . فمحبتهنّ متزايدة وهن ضعيفات يحتجن المعونة والاشفاق . فنتج انهن يطلبن الصداقة بعد الحب (العشق) . والمرأة لا تعرف الانانية التي افسدت طبيعة الرجل . اجل انه يوجد نساء كثيرات متصلفات وقاسيات ومتكبرات كالرجال غير ان هؤلاء ليس نساء بالمعنى الحقيقي . يوجد نساء كالحجارة الصماء لا بل كالركامات الثلجية وقلوبهن كأنها قطع من جليد ودموعهن عصير جمد بعدما ابرزته الكبرياء والفطرسة المقترنة بالضعف والعجز وكذلك يوجد رجال لطفاء ذوو حشمة وشفقة كاشرف النساء وألطفهن فالفرق الجوهري اذاً بين الرجل والمرأة هو ان المرأة لا تعتمد عَلَى ذاتها ولا تعتدّ بنفسها والرجل عكسه . المرأة تخفي حبها المفرط تحت ستار عدم الاكتراث والمبالاة (اي يتظاهرن بعدم الاكتراث والمبالاة) والرجل يخفي عدم مبالاته بالمرأة تحت ستار الحب المفرط (اي ان الرجل يخفي ذلك متظاهراً بالحب) وعَلَى كلّ فهذا الحدّ او التعريف لا يشمل النساء الدنيات العديمات الشعور والطائشات

قال روشوفوكلد في نساء كهؤلاء — أنهن في اول غرامهن يحبين الحبيب ثم يصبحن يعشقن الغرام نفسه فنساء هذا شأنهنّ يفسدن ذكر الحب الطاهر ويخلقن ناموسه الشريف باتخاذهن الطريقة المذكورة

ربما يدعي الى الحزن والاسف والشفقة كون المرأة تكتم الحزن باكثر سهولة من الفرح حال كون الرجل يستطيع كتم الفرح اكثر منه على كتم الحزن ذكروا ان محب عادليدي كومايخ بعد ان هجرها وذهب الى احد الاديرة ذهبت اليه وتظاهرت بزي رجل واخذت العهود كرجل يطلب الترهب ولم تعرّفه بنفسها الا حينما ماتت جوىً وغماً على خسارتها حبيبها المتنسك

لا يقدر الرجل ان يتوصل في الحب الى هذه الدرجة درجة الوله والتعبد الشديد . المرأة وحدها تحتمل هذا الحب وتكتفي بالفرح الخفي الناتج عن قرب او حضور الحبيب . الرجل تطلب طبيعته الحركة والعمل والمرأة تطلب طبيعتها لا بل تكتفي بوجود العاطفة والشعور . الصداقة بين شابين تكون حماسية حربية لا تخلو من قلاقل وانتظار اما صداقة فتاتين فهي مبهجة منشطة لطيفة كرنة اوتار العود او نغمة احد انابيب آلة موسيقية هوائية

حاجة المرأة للصداقة اعظم من حاجة الرجل اليها ذلك لان المرأة اضعف عنصراً من الرجل واكثر بساطة منه وكما يقول المثل الانكليزي « ان المرأة ترى خيالها في المرآة ولبساطتها تقول ان هذا الشبح جميل وظريف ولا تقول انني جميلة وظريفة » قال ملتون الشاعر الانكليزي في قصيدته (الفردوس المفقود) — ان حوا لما رأت خيالها الجميل في الماء الزلال الجاري في الفردوس ارتاعت ولم تعلم انه خيالها

ان الرجل كالمزمار لا يتم ما عليه ما لم يملأ نفساً حاراً من الشفقة والحنو تبثه فيه المرأة اللطيفة اما المرأة فكالة طرب ذات اوتار فيها كل مقامات الطرب لا ينقصها الا النفر وحاجة الآلة الموسيقية الى النفر اعظم الحاجات لاصدار صوت الطرب والمراد بذلك ان صداقة المرأة بمثابة نفس حار في الرجل يتعذره